**المحاضرة 5 : التزامني والتعاقبي في تاريخ الأدب :**

 إنّ هذا المنظور المتجدّد مع كلّ حقبة و مع أفق كلّ زمن ، قد يعني بشكل ما تجدّدا في الصورة التي يظهر بها العمل ، ذلك أنّ هذا التجدّد إنّما هو خاصية جمالية تُنشئها جملة العوامل التي تربط المتلقي بالنصّ ، مثل عامل المفاجأة و عامل المباعدة المرتبطان بتخييب التوقّع و دحض الأفق ،

غير إنّ الخاصية الجمالية ليست وحدها كفيلة بأن تكشف عن هذا التجدّد ، بل إنّ تجدّدا ذا خاصية تاريخية أيضا يمكن أن يُعايَن ضمن التحليل الدياكروني ، هذا التحليل الذي يبحث في العوامل التاريخية التي تترجم لنا كيف أنّ ظاهرة أدبية ما اُستقبلت على أنّها عمل جديد ، و بأيّ معيار قد تمّ النظر إلى هذه الجدّة في اللحظة التاريخية التي ظهر فيها العمل [[1]](#footnote-1)( 133 ) .

 و إذا كان ياوس قد أقرّ بفعالية الحركة التعاقبية ( التاريخية ) لسلسلة تلقي العمل و توالي هذه السلسلة عبر جملة التأثيرات التي تركها العمل مع كلّ جمهور ، فإنّه أيضا يدعو إلى الإقرار بفعالية المحور المقابل في التحليل و الدراسة الأدبية ، و هو المحور ( التزامني ) الذي يحدّد وضعية النصّ الأدبي في إطار السلسلة الأدبية التي ينتظم فيها ، بمعنى : (( دمج التحليلين التعاقبي و التزامني في عملية تحليلية واحدة (...) و الاستفادة من الدراسة التزامنية للخطاب القائمة على التحليل اللساني )) [[2]](#footnote-2)( 134 ) .إنّ التصوّر المبدئي عند ياوس في صياغة نظرية لتاريخ الأدب يعتمد بصورة أوضح على التحليل التعاقبي الذي يهتم بتفسير التغيّرات الحاصلة في المعايير و القيم ، التي يتمّ بها تلقي العمل من جيل إلى جيل أو من جمهور إلى جمهور ؛ غير أنّ هذا التحليل لا يمكنه أن يكون مطلقا في تقفّيه للبعد التاريخي للعمل ، إلاّ إذا وَضَع ضمن تصوّره فعالية الدراسة الوصفية ( التزامنية ) للعمل ، بتقريب العمل ، عن طريق تأثيره التاريخي ، من المعايير و القيم الفنّية السائدة ، التي يستدعيها الجنس الذي ينتمي إليه العمل ، و كشف العلاقة بين العمل و المناخ الأدبي : (( حيث لا يمكن لهذا العمل أن يفرض نفسه إلاّ تنافسا مع أعمال أخرى ناشئة عن أجناس أخرى )) [[3]](#footnote-3)( 135 ) ، لذلك فإنّ تاريخانية الأدب لا يمكنها أن تتجلى إلاّ في نقطة تقاطع المحورين ، التزامني و التعاقبي .

 لقد بات واضحا في تحديد ياوس ، أنّ المقطع السنكروني لحقبة أدبية معيّنة ضرورة لا يمكن تجاوزها ، بل يجب أن تكون أكثر من ذلك مقاطعا لحقب أدبية متباينة ، حيث يمكن إعادة تشكيل الأفق الأدبي للحظة تاريخية محدّدة ، و حيث يمكن التحقّق من الأعمال في مدى انسجامها مع أفق زمنها ، و أيّ هذه الأعمال قد تجاوز ذلك الأفق ؟ و أيّ هذه الأعمال أيضا لا يرتبط بأفق عصره ؟ إنّ تـلازم و امتزاج المـلامح المتزامنة وغير المتزامنة – علـى حدّ ما قال به كراكاور Kracauer [[4]](#footnote-4)( 136 ) – فـي لحظة تاريخية ما يستدعـي إجراء هذا المقطع التزامني بغية كشف التاريخانية الحقّيقية للظواهر الأدبية ، حيث يمكن بالضبط ، أن يتقاطع المحور التعاقبي مع المحور التزامني .

 كما أنّه لا يمكن الفصل بين ماضي و حاضر النظام التزامني ، ذلك أنّ الأدب يشبه اللغة في نظام تطوّرها – و هو الذي نقله ياوس عن ياكبسون و تينيانوف في تعريف الأدب [[5]](#footnote-5)( 137 ) – بحيث إنّ النظام التزامنـي له ماضيه و مستقبله الذي يتجلى عبر مراحل تطوّره ، و هو يعين على تحديد الوظائف و التشكيلات الثابتة أو المتغيّرة في نظام اللغة التي تلعب بدورها دورا محدّدا في نظام الأدب ، لذلك فإنّ الأدب يمتلك نوعا من النحو و علم التراكيب الثابتة نسبيا ، و المتمثّلة في نظام العوامل المُقنّنة أو غير المُقنّنة ( الأجناس ، أنماط التعبير ، الأساليب ، الصور البلاغية ) ، التي تتقاطع بدورها مع ما يخصّ الدلالة في تنوّعها ( موضوعات أدبية ، نماذج مثالية ، رموز ، و استعارات ) [[6]](#footnote-6)( 138 ) ، و بالتالي يمكن أن نفعّل التفسير الوظيفي للعلاقة المتطوّرة بين إنتاج العمل و تلقيه ، و أن نتمثّل تطوّر الآفاق عبر تاريخ التجربة الجمالية ، التي تسعى إلى تحاشي الأهواء الذاتية في تلقي الأعمال ، و تحليل الآفاق المتغيّرة : (( إنّنا لكي ندرس تغيّر الأفق الذي يحدث داخل مسار التطور الأدبي فإنّه ليس من الضروري تتبّعه تعاقبيا (...) و إنّما يمكن تمثّله أيضا ، بمعاينة كيف أنّ حالة النظام التزامني لأدب ما تغيّر )) [[7]](#footnote-7)( 139 ) .

 إنّه بإمكاننا أن نعود الآن إلى مفهوم الأفق المزدوج Double Horizon كما أشرنا من قبل ، فالعمل الأدبي كخاصية حدثية إنّما هو مجموع اللقاء بين أفقين : أفق التوقّع الذي يستدعيه العمل ، و أفق التجربة الذي يحمله القارئ معه ، ذلك أنّ التاريخ الأدبي لا يمكنه أن يكون تاريخا مستقلا و منعزلا عن التاريخ العام ، و أنّ علاقته بالتاريخ العام هي علاقة بقدرة القارئ على إنتاج المعنى و إعادة إنتاجه في لقائه مع النصّ ، و ضمن الوظيفة الاجتماعية للأدب : (( إنّ الوظيفة الاجتماعية للأدب لا يمكنها أن تُمارَس إلاّ في الوقت الذي تتدخّل فيه التجربة الأدبية للقارئ في أفق توقّع ممارساته العملية و التطبيقية ( Praxis ) [[8]](#footnote-8)(\*) المعاشة )) [[9]](#footnote-9)( 140 ) .

1. ( 133 ) - ينظر :IBID ; p p 67 -68 . [↑](#footnote-ref-1)
2. ( 134 ) - عبد الناصر حسن محمد : نظرية التوصيل و قراءة النصّ الأدبي ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، مصر ، 1999 ، ص ص 116 – 117 . [↑](#footnote-ref-2)
3. ( 135 ) - Jauss ; pour une ésthétique de la réception p 70 . [↑](#footnote-ref-3)
4. ( 136 ) - ينظر : IBID , p 70 . [↑](#footnote-ref-4)
5. ( 137 ) - ينظر : IBID : p 71. [↑](#footnote-ref-5)
6. ( 138 ) - ينظر : IBID ; p 72 . [↑](#footnote-ref-6)
7. ( 139 ) - IBID ; p 72 . [↑](#footnote-ref-7)
8. (\*) - الإضافة بين قوسين من عندنا ، و هي مأخوذة من كتاب ياوس الذي تُرجم إلى الفرنسية ، على أنّ كلمة praxis) ) مقتبسة من الفلسفة الماركسية و هي تعني التطبيق العملي ، أو محاولات تغيير العالم ، و بخاصة وسائل الإنتاج التي تقوم عليها البنى الاجتماعية . بينما تعني في الفلسفة الوجودية : ما ينكشف به الوجود في التاريخ . [↑](#footnote-ref-8)
9. ( 140 )– Jauss ; Pour Une Herméneutique Littéraire , p431 . [↑](#footnote-ref-9)